

المادية والروحانية في حياة الإنسان من خلال القرآن الكريم

الأستاذ حبيب صافي
جامعة وهران



الذي تعددت أوجهه، أو تعلق بغيرها من الجوانب.

والخوض في جانب واحد من تلك الجوانب يتطلب بحوثاً معمقة ودراسات مضمّنة، وقد أفردت هذا البحث المتواضع بالتعريض ولو باقتضاب على التوازن الذي ضمنه الإسلام في حياة الإنسان بين الروح والمادة، وهو موضوع ليس من السهل خوضه أو ضبطه ولكن هي محاولة للبيان أو التذكير لا غير.

إن الحديث عن توازن الروح والمادة في حياة الإنسان حديث دقيق

لا يستطيع أي باحث أو عارف بحقائق الدين الإسلامي المراء أو إخفاء معالم التوازن في حياة الإنسان بين الجانب الروحي والمادي، فلقد أثبتت كل الأدلة العلمية أن هذا الدين دين متكامل يضمن سعادة الإنسانية في العاجل والآجل، أفراداً وجماعات، دويلات وأمماً، ولا أدل على ذلك من شهادة كبار مفكري العالم مسلمهم وكافرهم، سواء تعلق الأمر بالجانب الروحي والجسدي المادي أم بالجانب التشريعي من حيث المصادر ومن حيث التفريع عليها، أو بالجانب الإعجازي

استأثر الله تعالى بعلمه، ولذلك فإن حقيقة الروح في المباحث المتعلقة بالتوازن بين الروح والمادة في حياة الإنسان التي ذكرها الكثير، لا تعقيد ولا غموض يكسوها، فحقيقتها أنها مجموعة المسائل والأعمال التي يطلق عليها أعمال القلوب، من التعبّدات والأذكار والمعاملات التي تجمعها قضايا عالجهما الأئمة تحت مسمى التصوف أو التزكية أو الرقائق.

المتطلبات الروحية للإنسان: إن

النفس البشرية فطرها الله تعالى على مجموعات من التصرفات والأعمال، وأخضعها بالإسلام عقيدة وشرعية إلى مجموعة من الأحكام الشرعية التي تحافظ على النفس محافظة تضمن لها سعادة الدارين، إذ لا سعادة إلا بركنين رئيسين يذكرهما ابن القيم في كتابه "الفوائد" بقوله: (للإنسان قوتان: قوة علمية نظرية وقوة عملية إرادية وسعادته التامة موقوفة على استكمال قوته العلمية والإرادية واستكمال

لا بدّ أولاً من بيان حقيقة الروح وماذا تمثل في الإنسان وما المقصود بمتطلباته الروحية، ثم التعرض إلى مكانة الجانب المادي في حياة الإنسان وما هي متطلباته المادية المحسوسة التي لا بدّ من توفرها أو التي تعتبر أساسية لسير الحياة، وبعد ذلك بيان أنّ السعادة التي ضمنها الإسلام لا تكون إلا بالموازنة بين متطلبات الفرد الروحية والجسدية، وقد جعل الله أسرار ذلك كله في كتابه العزيز فقال: ألم ذلك الكتاب لا ريب فيه هدى للمتقين [البقرة: 1].

المقصود بالروح: يقول الله تعالى: ﴿وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي وَمَا أُوتِيتُمْ مِنَ الْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا﴾ [الإسراء: ٨٥].

إذا أتينا إلى تفسير هذه الآية، فسنجد الكثير من الأقوال التي أوردتها العلماء عن سلف الأمة الصالحين الذين يؤكدون على الجدلية البحتة لحقيقة الروح، بمعنى أن البحث في حقيقتها هو من المحذور الغيبي البحت الذي

إلى الاستجابة. والمراد أنه تعالى هو الذي يقدر على إحياء قلوب هؤلاء الكفار بحياة الإيمان وأنت لا تقدر على ذلك ، يعني أن الذين تحرص على حصول إيمانهم بمنزلة الموتى الذين لا يسمعون كقوله ﴿ إِنَّكَ لَا تَسْمِعُ الْمَوْتَى ﴾ النمل: ٨٠ ، أو المعنى أن هؤلاء الكفرة يبعثهم الله ثم إليه يرجعون فحينئذ يسمعون، وأما قبل ذلك فلا سبيل إلى إسماعهم. أما وجه تشبيه الكفرة بالموتى فلأن حياة الروح بالعلم ومعرفة الصانع كما أن حياة الجسد بالروح).

ومن الضروري أن نشير إلى أن أعمال المسلم اليومية عبادات أو معاملات، تتضمن جانبين على قدر كبير من الأهمية ويغفل عنهما الكثير ولا يستشعرهما وهما أن السعادة التي تكون نتيجة للعلم والعمل إنما هي راجعة إلى جعل الله تعالى لأعمال الناس ضابطين لصلاحها وصحتها ميزان القصد وهو المعبر عنه عند علماء

القوة العلمية إنما يكون بمعرفة فطره وبارئه... واستكمال القوة العملية الإرادية لا يحصل إلا بمراعاة حقوقه سبحانه على العبد والقيام بها إخلاصا وصدقا... فكمال الإنسان وسعادته لا تتم إلا بمجموع هذه الأمور وقد تضمنتها سورة الفاتحة وانتظمتها أكمل نظام).

فأنت ترى أن السعادة كما يقررها القرآن لا تتأتى ولن تتم إلا بالمعرفة والعمل الموافق لها، وما يقال عن سورة الفاتحة يقال عن كثير من آي القرآن الكريم التي تحوي أسراراً للسعادة الدنيوية والأخروية لا يدركها إلا من لم يهجر القرآن قراءة وتدبرا.

وفي الآية الآتية خير دليل على أنه لا سعادة إلا بحياة القلوب وهذه الأخيرة لا تكون إلا بالإيمان

قال تعالى: ﴿ إِنَّمَا يَسْتَجِيبُ الَّذِينَ يَسْمَعُونَ وَالْمَوْتَى يَبْعَثُهُمُ اللَّهُ ثُمَّ إِلَيْهِ يُرْجَعُونَ ﴾ الأنعام: ٣٦؛ يقول النيسابوري في تفسيرها: (مثل لقدرته على إلجائهم

بهذا التصور فلا حياة له ولا سعادة إلا بالاستجابة للمنهج المسطر من المفتقر إليه، ومن أهم أسباب السعادة الطمأنينة القلبية وقد أرشدنا إلى كيفية تحقيقها بقوله: ألا بذكر الله تطمئن القلوب وكما عودنا القرآن الكريم عموم معاني الآيات وشمولها فإن معنى الذكر لا ينحصر في تلك الأوراد اليومية التي ترددها الألسن، بل يشمل كل حركات الإنسان وسكناته فعندما يتكلم الإنسان أو يحضر مجلس لغو فقد يتوقف لسانه لحظة ما تصادف ذكر عدم رضا الله تعالى عن صنيعه فيمسك عن إتمام كلامه أو الاستماع إلى كلام غيره الذي لا طائل وراءه فهذا ذكر لله تعالى، وقد يخطر بباله إنقاص عمل ما وعد بإنهائه لعدم حضور رب العمل ولكن ذكره لله في تلك اللحظة هو ذكر تطمئن به القلوب، والكلام يطول في هذا المقام.

المتطلبات المادية: ضمن الإسلام للإنسان الكثير من المتطلبات المادية

الأصول بجانب الديانة وميزان الظاهر المحسوس، ويعبر عنه الأصوليون في باب العبادات بالمتابعة أي متابعة النبي صلى الله عليه وسلم ويقابل المتابعة الابتداع وفي باب المعاملات يصطلحون عليه بالقضاء. وشرط قبول العمل أن يجتمع القصد والظاهر لينتظم بهما قصد الشارع على وفق المقرر في القواعد الكلية التي تبرز رونق الشريعة الضامنة لسعادة البشر بالمحافظة على الفطرة والمحافظة على الفطرة لا يكون إلا بالتوازن التشريعي بين الروح والمادة ولنلج إلى ما أورده القرآن من متطلبات الإنسان المادية والتي لها أثر ووقع بارز في تحقيق السعادة والاستقرار الروحي الموصل إلى الجنة.

والمتطلبات الروحية للإنسان لا يمكن حصرها في هذه الكلمات، ولكن لابد من ذكر إجماع العلماء قاطبة على أن البشر مفطور على اتخاذ إله يعبدوه وهو مفتقر إليه لضعفه ولأن الله تعالى قد فطره على ذلك وما دام الأمر

جميع الميادين يزداد بقدر الاستقرار الأسري والتنظيم المزدوج لحياة الإنسان الروحية والمادية ، ولعل هذا الازدواج داخل ضمن تفسير آية ﴿وَمِنْ كُلِّ شَيْءٍ خَلَقْنَا زَوْجَيْنِ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ﴾ الذاريات: ٤٩ .

نجاح الإنسان في خلافته مرتبط بالتوازن الروحي والمادي: جماع ذلك تفسير ما جاء في الكتاب العزيز حيث يقول جل من قائل مخاطبا الملائكة: ﴿إِنِّي جَاعِلٌ فِي الْأَرْضِ خَلِيفَةً﴾ البقرة: ٣٠ ، يقول صاحب "ظلال القرآن" في وقفة رائعة مع هذه الآية: (إن أبرز إحياءات قصة آدم - كما وردت في هذا الموضوع- هو القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان ولدوره في الأرض، ولمكانه في نظام الوجود، وللقيم التي يوزن بها. ثم حقيقة ارتباطه بعهد الله، وحقيقة هذا العهد الذي قامت خلافته على أساسه. وتتبدى تلك القيمة الكبرى التي يعطيها التصور الإسلامي للإنسان

التي تجعل منه بشرا مكرما مستقرا، كما منع عدة ماديات يعتقد الإنسان نفعها تعكر صفو الحياة وتخرج الإنسان عن آدميته المحترمة إلى حيوانية وضيعة أو أقل منها، وعلى سبيل التمثيل لا الحصر نذكر أن الله تعالى قد أباح الصيد والأكل والشرب والتمتع بالطيبات وحرم الخمر والربا والزنا وقسم الأموال تقسيما عادلا ما بعده عدل في التركات التي تبقى بعد موت الإنسان وكل ذلك وغيره دليل ناصع وواضح على شمول وعالمية الإسلام. ولنتحدث الآن عن أهم الماديات المحسوسات التي كفلها الإسلام لإسعاد الناس.

الزواج: من حيث الاستقرار النفسي الروحي قال تعالى: ﴿وَمِنْ ءَايَاتِهِ أَنْ خَلَقَ لَكُمْ مِنْ أَنْفُسِكُمْ أَزْوَاجًا لِتَسْكُنُوا إِلَيْهَا﴾ الروم: ٢١، فالاستقرار الأسري كان أحد أهم مقاصد الإسلام في إرساء قواعد المجتمع الراقي فكريا حضاريا وماديا، لأن عدة دراسات أثبتت أن حجم العطاء البشري في

مادي. فهذه الماديات كلها مخلوقة - أو مصنوعة - من أجله. من أجل تحقيق إنسانيته. من أجل تقرير وجوده الإنساني. فلا يجوز إذن أن يكون ثمنها هو سلب قيمة من قيمه الإنسانية، أو نقص مقوم من مقومات كرامته.

والاعتبار الثاني هو أن دور الإنسان في الأرض هو الدور الأول. فهو الذي يغير ويبدل في أشكالها وفي ارتباطاتها؛ وهو الذي يقود اتجاهاتها ورحلاتها. وليست وسائل الإنتاج ولا توزيع الإنتاج، هي التي تقود الإنسان وراءها ذليلاً سلبياً كما تصوره المذاهب المادية التي تحقر من دور الإنسان وتصغر، بقدر ما تعظم في دور الآلة وتكبر!

إن النظرة القرآنية تجعل هذا الإنسان بخلافته في الأرض، عاملاً مهماً في نظام الكون، ملحوظاً في هذا النظام.

فخلافته في الأرض تتعلق بارتباطات شتى مع السماوات ومع الرياح ومع الأمطار، ومع الشمس

في الإعلان العلوي الجليل في الملاء الأعلى الكريم، أنه مخلوق ليكون خليفة في الأرض؛ كما تتبدى في أمر الملائكة بالسجود له. وفي طرد إبليس الذي استكبر وأبى، وفي رعاية الله له أولاً وأخيراً.

ومن هذه النظرة للإنسان تنبثق جملة اعتبارات ذات قيمة كبيرة في عالم التصور وفي عالم الواقع على السواء.

وأول اعتبار من هذه الاعتبارات هو أن الإنسان سيد هذه الأرض، ومن أجله خلق كل شيء فيها - كما تقدم ذلك نصاً - فهو إذن أعز وأكرم وأعلى من كل شيء مادي، ومن كل قيمة مادية في هذه الأرض جميعاً. ولا يجوز إذن أن يستعبد أو يستذل لقاء توفير قيمة مادية أو شيء مادي... لا يجوز أن يعتدي على أي مقوم من مقومات إنسانيته الكريمة، ولا أن تهدر أية قيمة من قيمه لقاء تحقيق أي كسب مادي، أو إنتاج أي شيء مادي، أو تكثير أي عنصر

قيم الإيمان والصلاح والإخلاص في حياته. فهذه هي القيم التي يقوم عليها عهد استخلافه: ﴿فَإِمَّا يَأْتِيَنَّكُمْ مِنِّي هُدًى فَمَن تَبِعَ هُدَايَ فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ﴾ البقرة: ٣٨ ، وهذه القيم أعلى وأكرم من جميع القيم المادية - هذا مع أن من مفهوم الخلافة تحقيق هذه القيم المادية، ولكن بحيث لا تصبح هي الأصل ولا تطفئ على تلك القيم العليا- ولهذا وزنه في توجيه القلب البشري إلى الطهارة والارتفاع والنظافة في حياته. بخلاف ما توحيه المذاهب المادية من استهزاء بكل القيم الروحية، وإهدار لكل القيم الأدبية، في سبيل الاهتمام المجرد بالإنتاج والسلع ومطالب البطون كالحيوان!).

إن هذا التفسير الجامع الذي جال بنا في رحاب آية واحدة من القرآن الكبير يجعلنا ندرك تمام الإدراك أن القرآن الكريم قانون كامل ودستور قويم يمكن للبشرية جمعاء أن تتخلص من كل العقد والمشاكل إذا هي جعلت

والكواكب... وكلها ملحوظ في تصميمها وهندستها إمكان قيام الحياة على الأرض، وإمكان قيام هذا الإنسان بالخلافة... فأين هذا المكان الملحوظ من ذلك الدور الدليل الصغير الذي تخصصه له المذاهب المادية، ولا تسمح له أن يتعدها؟!

وما من شك أن كلا من نظرة الإسلام هذه ونظرة المادية للإنسان تؤثر في طبيعة النظام الذي تقيمه هذه وتلك للإنسان؛ وطبيعة احترام المقومات الإنسانية أو إهدارها؛ وطبيعة تكريم هذا الإنسان أو تحقيره... وليس ما نراه في العالم المادي من إهدار كل حريات الإنسان وحرماته ومقوماته في سبيل توفير الإنتاج المادي وتكثيره، إلا أثراً من آثار تلك النظرة إلى حقيقة الإنسان، وحقيقة دوره في هذه الأرض!

كذلك ينشأ عن نظرة الإسلام الرفيعة إلى حقيقة الإنسان ووظيفته إعلاء القيم الأدبية في وزنه وتقديره، وإعلاء قيمة الفضائل الخلقية، وتكبير

وفي الختام لابد من الإشارة إلى أن الموضوع لا يمكن أن يلخص في هذه العجالة وإنما هو قطرة من بحر البحوث التي تبرز جوانب مهمة كهذا الجانب الذي عرجنا عليه هنا.

منه منهلا للبحث عن سبل العيش السعيد.

التوازن الروحي والمادي نتيجته توازن المجتمع في جميع المجالات: الطبقة، والإقطاعية والاستغلال

والرقي الحضاري الصحيح والمتين لا يهمل أيا من الجانبين.

